الدار الشاملة
عطاء وبناء
دار الوطن
٤٦٢

الرحمة المهداة

محمد صلى الله عليه وسلم

خالد أبو صالح

مركز خدمة المتبرعين بالكتاب
الرياض - ص.ب ٣٣١٠ - هاتف ٤٧٩٢٠٤٢ - فاكس ٤٧٢٣٩٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

الرحمة المهداة محمد ﷺ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده، أما بعد:

لو سئل المسلم: ما هي أخصُّ صفات النبي المصطفى ﷺ، لكان لزاماً عليه أن يجيب:

إنها صفة الرحمة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقوله ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة» (رواه الحاكم).

وقوله ﷺ: «إني لم أبعث لعاناً، وإنما بعثت رحمة» (رواه مسلم).

وقد شغَب بعض القساوسة فزعم أن هناك تناقضاً بين هذا الحديث وبين قوله ﷺ: «اللهم إنما أبشر، فأيما رجل من المسلمين سببتُه، أو لعنتُه، أو جلدتُه، فاجعلها له زكاة ورحمة» (رواه مسلم).

وهذا القسّ إنما أوتي من لُكْنته وجهله باللغة والشريعة معاً، وقبل كل ذلك كراهته لهذا الدين وبغضه لنبي الإسلام ﷺ، ولذلك راح يشنع بأن هناك تناقضاً في كلام رسول الله ﷺ، فهو ﷺ ينفي أنه بُعث لعاناً، وإنما بعث رحمة، ثم يثبت بعد ذلك أنه قد يلعن ويسبّ. وهذا - بحمد الله - ليس فيه أيُّ تناقض، بل التناقض في عقل هذا المتكلم وفهمه

كما قيل:

وكم من عائب قولاً صحيحاً
وآفتــه من الفهــم السقيـم
ولكـن تاخـذ الأذهان منــه
على قدرِ القرائح والفهـوم

والجمع بين الحديثين أن النبي ﷺ قال: «**إني لم أبعث لعاناً**».

واللعان: صيغة مبالغة. أي: كثير اللعن، وهذا لا يمنع أن يلعن رسول الله في بعض الحالات القليلة، والنبيّ ﷺ لا يلعن ولا يسبّ ولا يجلد إلا بحق، ومع ذلك اشترط على ربّه أن يجعل لعنه وسبّه وجلده لأي مؤمن زكاةً له وصلاةً وقربةً وكفارةً للذنوب، وهذا من كمال رحمته ﷺ بأمته.

قال النووي: (هذه الأحاديث مبينة ما كان عليه ﷺ من الشفقة على أمته، والاعتناء بمصالحهم، والاحتياط لهم، والرغبة في كلّ ما ينفعهم).

وذكر النووي وجهاً آخر للجمع بين هذه الأحاديث فقال: (وإنه إنما يكون دعاؤه عليه رحمة وكفارة وزكاة ونحو ذلك، إذا لم يكن أهلاً للدعاء عليه والسبّ، واللعن ونحو ذلك، وكان مسلماً، وإلا قد دعا ﷺ على الكفار والمنافقين، ولم يكن ذلك لهم رحمة.

فإن قيل: كيف يدعو على من ليس هو بأهل للدعاء عليه، أو يسبه، أو يلعنه ونحو ذلك؟

فالجواب ما أجاب به العلماء، ومختصره وجهان:

أحدهما: أن المراد: ليس بأهلٍ لذلك عند الله تعالى، وفي باطن الأمر، ولكنه في الظاهر مستوجب له، فيظهر له ﷺ استحقاقه لذلك بأمارة شرعية، ويكون في باطن الأمر ليس أهلاً لذلك، وهو ﷺ مأمور بالحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر.

والثاني: أن ما وقع من سبّه ودعائه ونحوه ليس بمقصود، بل هو مما جرت به عادة العرب في وصل كلامها بلا نية كقوله: «تربت يمينك» و «عقرى حلقي» و «لا كبرت سنك» وفي حديث معاوية: «لا أشبع الله بطنه» ونحو ذلك، لا يقصدون بشيء من ذلك حقيقة الدعاء، فخاف ﷺ أن يصادف شيء من ذلك إجابة، فسأل ربه سبحانه وتعالى ورغب إليه في أن يجعل ذلك رحمة وكفارة وقربة وظهوراً وأجراً، وإنما كان يقع هذا منه في النادر، والشاذ في الأزمان، ولم يكن ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ولا لعاناً ولا منتقماً لنفسه[1].

فهذه - والله - منقبة عظيمة لرسول الله ﷺ ودليل جديد على رحمته وشفقته بأمته، حيث إنه ﷺ أبى إلا أن تكون عقوبته لبعض الناس رحمةً لهم وزكاة وصلاة وأجراً وقربةً يجدون أجْرَها عند الله تعالى!

فانظر كيف يأتي هذا المهووس فيجعل هذه المنقبة نقصاً ونقضاً لقانون الرحمة، فيأتي بالكلام من هنا

---

(١) مسلم بشرح النووي: (١٦/ ٣٦٧، ٣٦٨).

وهناك ليشوش به على الناس، ويشكك المسلمين في عقيدتهم - زعم - وأنى له ذلك، فإن كتابنا محفوظ من التناقض والاختلاف: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر: ٩]، ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ [النساء: ٨٢]، ونبينا ﷺ لا ينطق عن الهوى: ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ [النجم: ٤].

رحمة عامة

إن رحمة النبي ﷺ كانت رحمة عامة شاملة لجميع الناس؛ صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاهم، غنيهم وفقيرهم، قويّهم وضعيفهم، حرّهم وعبدهم، مؤمنهم وكافرهم. نعم مؤمنهم وكافرهم؛ أما جاء الطفيل بن عمرو الدوسي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إن دوساً قد عَصَتْ وأبت، فادع الله عليها. ومعلوم أن الرجل خَبيرٌ بقومه، وقد أيس من إيمانهم، وأخبر أنهم مصرون على الكفر والعناد، ولذلك طلب من النبيّ ﷺ أن يدعو عليهم ليستأصلهم الله تعالى بالعذاب.

فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة، ورفع يديه. فقال الناس: هلكت دوس .. هلكت دوس . . فقال رسول الله ﷺ : «اللهم اهد دوساً وائت بهم» (متفق عليه).

فدعا لهم ﷺ ، لأنه نبيُّ الرحمة، ولأنه ﷺ يريد للناس الهداية والرشاد، ويريد لهم الفوز بالجنة والنجاة من النار.

وهذه عائشة رضي الله عنها تقول لرسول الله ﷺ: يا رسول الله! هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك، وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد يالِيل بن عبد كلال، فلم يُجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، لم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله عز وجلّ قد سمع قول قومك لك، وما ردّوا عليك، وقد بعث إليك مَلَك الجبال، لتأمره بما شئت بهم. قال: فناداني ملك الجبال، وسلّم عليّ، ثم قال: يا محمد! إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني الله إليك، لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت ان أطبق عليهم الأخشبين. فقال رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يُخرجَ الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، ولا يشرك به شيئاً» (متفق عليه).

فلم يقل ﷺ: نطبق عليهم الأخشبين وننتهي من أمرهم، وبذلك تتمحض مكة لأهل الإيمان، ثم نبدأ بعد ذلك في تبليغ الدعوة، كلما عصى قوم دعونا عليه فهلك. لم يفكر رسول الله ﷺ هذا التفكير، ولم يمل إلى خيار الاستئصال الذي عرضه عليه ملك الجبال، لأنه نبي الرحمة، ولأن هؤلاء الذين سيُستأصلون سوف يموتون على الكفر، ويكونون من أهل السعير، وهو ﷺ لا يريد ذلك، إنما يريد هدايتهم ونجاتهم، وأن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً.

غلام يهودي

ومن رحمته ﷺ بأهل الكتاب ما رواه أنس رضي الله عنه قال: كان غلام يهودي يخدم النبيَّ ﷺ، فمرض، فأتاه النبيّ ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: «أسْلِم» فنظر الغلام إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطِعْ أبا القاسم، فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**» (أخرجه البخاري).

لم يقل النبي ﷺ: إن هذا الغلام كان يخدمني، وقد رأى من أحوالي وأخلاقي الشيء الكثير، ومع ذلك لم يسلم، فلماذا أذهب إليه الآن! ولكنه ﷺ أبت عليه رحمته وشفقته إلا أن يتمسك بآخر خيط وإن كان رفيعاً، فذهب إلى الغلام اليهودي يعوده، وعرض عليه الإسلام. فنظر الغلام إلى أبيه وكأنه يطلب موافقته. وهنا تحركت مشاعر الأبوة لدى الولد، فهو يعلم أن النبيَّ ﷺ ما عرض على ابنه إلا الخير والرحمة والهداية، فقال له: أطع أبا القاسم. فأسلم الغلام، فخرج النبي ﷺ مسروراً وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**». إنه مشهد عظيم من مشاهد الرحمة، يتجلى فيه حرص النبي ﷺ على هداية البشر وإنقاذهم من النار، حتى ولو لم ينتفع من ورائهم بشيء؛ لا في جهاد، ولا دعوة، ولا بذل للإسلام، فالهدف هو رحمة الناس وهدايتهم، كما قال ﷺ لعلي: «**لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمر النَّعم**» (متفق عليه).

حتى الحيوان

وتتجاوز رحمة النبيّ ﷺ البشر لتشمل الحيوان المهين، فإن له عند رسول الله ﷺ حقوقاً، فهو ﷺ أول من قرر حقوق الحيوان وحذر من انتهاكها.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «عُذّبت امرأة في هرة، سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تاكل من خشاش الأرض» (متفق عليه).

خبروني أيها الناس! هل هناك قانون في الأرض، يجعل امرأة تدخل النار في هرة؟! وقد ذكر النووي أن الحديث يدل على أن هذه المرأة مسلمة، وأنها عذبت في النار بسبب تعذيب هذه الهرة وحبسها حتى الموت.

وكما أخبر النبي ﷺ عن امرأة دخلت النار في هرة، فقد أخبر عن امرأة أخرى غفر الله لها بسبب كلب سقته، قال ﷺ: «إن امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حار، يطيف ببئر، قد أدلع لسانه من العطش، فنزعت له بموقها، فغُفر لها» (لفظ مسلم وهو في الصحيحين).

فهذه امرأة بغي زانية، نظر الله إلى ما في قلبها من رحمة، فوفقها إلى التوبة وغفر لها بسبب كلب كاد يموت من العطش سقَتْه.

جَملٌ يبكي

وهـذه لوحـة أخـرى رائعـة من لوحـات الرحمـة المحمدية، فقد دخل النبي ﷺ بستاناً لرجل من الأنصار، وإذ في البستان جمل، فلما رأى النبيَّ ﷺ حنَّ، وذرفت عيناه.

فأتى إليه رسول الله ﷺ وعلم أنه يشكو إليه ظلم أصحابه، فمسح رسول الله ﷺ رأسه فسكن، ثم قال: «من ربُّ هذا الجمل؟» فجاء شاب من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله! فقال الرحمة المهداة يعلم البشرية، ويؤدب الإنسانية: «ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملَّكك الله إياها؟ فإنه شكى إليَّ أنك تُجيعُه وتدئبه» (رواه أحمد وأبو داود وصححه الألباني).

علم الجمل أن محمداً ﷺ نبي الرحمة، فبكى بين يديه، وشكى له ظلم البشر، فطلب النبي ﷺ صاحب الجمل ووعظه، وأمره بالإحسان إلى هذا الجمل.

من فجع هذه بولدها

إنهـا ليست بشـراً، بل هي طائـر صغيـر فجعت بولدها، فلم تجـده، ولم تجـد من تلجـأ إليـه من البشر سـوى رسـول الله ﷺ، وهـذا مـا يحدثنا عنه ابـن مسعود رضي الله عنه إذ يقول: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَرةً معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحُمَرة تُفَرِّشُ. فجاء النبي ﷺ

فقال: «من فَجَع هذه بولدها؟ ردّوا ولَدَها إليها».

ورأى قرية نملٍ قد حرّقناها فقال: «من حرّق هذه؟» قلنا: نحن. قال: «إنه لا ينبغي أن يعذّب بالنار إلا ربّ النار» (رواه أبو داود وصححه الألباني).

جاءت إليك حمامة مشتاقةٌ

تشكو إليك بقلبٍ صبّ واجفِ

من علّم الورقاء أن مقامكم

حَرَمٌ وأنك ملجأ للخائف

وللجماد نصيب من الرحمة المهداة ﷺ، فقد روي بأسانيد صحيحه أن النبي ﷺ لما صُنع له المنبر، صاحت النخلة التي كان يخطب عليها صياحَ الصبيّ، فنزل النبيّ ﷺ فضمّها إليه، فجعلت تئن أنين الصبيّ الذي يُسكّن. قال: «بكت على ما كانت تسمع من الذكر» (رواه البخاري).

كان الحسن إذا حدّث بهذا الحديث بكى وقال: هذه خشبة تحنّ إلى رسول الله ﷺ فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه.